المؤتمر الدولي العاشر للّغة العربيّة والمعرض الثالث

المحور 30: محاور اللغة العربيّة والأدب والبلاغة وتخصّصاتها المختلفة

دراسات نقديّة تحليليّة عن الروايات العربيّة والأجنبيّة وتحليل الخطاب متاهات الأمكنة أنموذجًا الرواية السعوديّة "مسرى الغرانيق في مدن العقيق" لأميمة الخميس

د. أستاذ مساعد نينا نبيل أيّوب

جامعة الجنان/ جامعة البلمند– شمال لبنان

Nina.ayoub@jinan.edu.lb

أ– التعريف بالموضوع

الأدب فنّ كتابيّ، يوحي ويؤثّر، غايته خلق المتعة، وتغذية الفكر، وسيلته اللغة. تفرّع عنه العديد من التخصّصات الأدبيّة، منها الفنّ الروائي الذي نال حظوة في النقد وتحليل الخطاب عند الغربيّين الذين عملوا على قراءة النصّوص، والخطاب. وعليه ستتمحور دراستي حول الأمكنة وتحوّلاتها العلائقيّة، لإبراز ما هو أبعد من الإطار الهندسي للمكان، مستفيدة من النظريّات السيميائيّة التي انفتحت على باقي العلوم النفسيّة، والأنتروبولوجيّة، والاجتماعيّة؛ أنموذجًا **الرواية السعوديّة "مسرى الغرانيق في مدن العقيق" لأميمة الخميس.**

ب– الإشكاليّة

نقلت الروائيّة أحداثاً متنوّعةً في أمكنةٍ متعدّدةٍ، إلاّ أن الآراء تضاربت حول مفهوم المكان، فمنهم من جعله متّصلاً بالجانب المادّي الضّيّق، ومنهم من وَجَده مكانًا خياليًّا له أبعاده ومقوّماته، وسيلته اللغة. فإلى أيّ مدى تتّسم الدّلالات المكانيّة في ظلّ معالم السّيميائيّة؟

ج– المنهج المعتمد

إنّ السّيميائيّة، منهج داخليّ، يدرس أيّ نموذج دراسة جديدة من خلال استقراء يستمدّ أصوله من الألسنيّة السّوسوريّة الاجتماعيّة مرورًا بالبنيويّة، وصولاً إلى التّأويل الدّينامي المفتوح كما عند ساندرز بيرس (Peirce) وأمبيرتو إيكو (Eco)، ما يجعل النّصّ مغلقًا في قراءته بفعل عدم تأثّره ببيئة المؤلّف الخارجيّة، ومفتوحًا في آن بخاصّة في منظومة التّأويل. وقد طوّرت السّيميائيّة باستثمار العديد من العلوم... لتوليد

دلالة إضافيّة براغماتيّة كالمكبوت والإيديولوجيّ... وفي هذا النّطاق، عوّلت على بعض علماء الأنتروبولوجييّن: يوري لوتمان (Youri Lotman)، غاستون باشلار (Gaston Bachelard) ، بيار بورديو (Bourdieu Pierre).

د- أدوات البحث المستخدمة

الحاسوب، المصادر، والمراجع.

هـ- محاور الدراسة

المكان لغة واصطلاحًا- العتبات النصيّة- مسرى الغرانيق في مدن العقيق- التقاطبات المكانيّة بين الانغلاق والانفتاح.

و- النتائج

إنّ المكان أبعد من ديكور جغرافيّ، يحمل الشّكل الخارجيّ للحياة، وسببًا في تنظيم العلاقات بين النّاس، وفق تحرّكات الشّخصيّات وأهدافها وعلاقاتها، تؤثّر وتتأثّر به، يتفاعلان. تتّخذ هذه الأماكن منحى إنسانيًّا، يظهر من خلال العوالم الدّاخليّة للذّات.

الدراسة

تتمثّل أهميّة البحث في الكشف عن مسوّغات الكاتبة أميمة الخميس في أنموذجها "مسرى الغرانيق في مدن العقيق"، في استعارة هذه الأمكنة الجغرافيّة، لتجلّي أهدافها في مقاربة الوظائف السرديّة وأبعادها الدلاليّة.

أمّا لماذا وُسِمَت الدراسة بعبارة متاهات الأمكنة للنموذج المذكور أعلاه؟ فالمتاهة اسم مَوْضِع من تِيه "وتاه في الأرض [...] أي ذهب متحيّرًا وضلّ"[1]، وقد تكون ممرّات بعضها مغلق وبعضها مفتوح تستخدم لقياس قدرة الإنسان أو الحيوان على الاستفادة من الاختبار، ويسمّى كذلك المتاهة"[2]. فالهدف إذًا ليس دراسة المكان بالجانب الهندسيّ لإبرازه فحسب، وإنّما ما يخلّفه من آثار فكريّة، وانعكاسات رؤى الذات الآهلة له، وذلك في نقل نماذج العالم الاجتماعيّة والدّينيّة والسّياسيّة والأخلاقيّة العامّة، على إضفاء معنى الحياة الّتي تحيط به، وما يترتّب عنه من مؤثّرات نفسيّة. لذا يتجاوز الفضاء المكانيّ معنى السّعة لغة، في الدراسات الأدبيّة، إلى أبعد من المفهوم اللغويّ لعبارة المكان أو الموقع وغيرها، ليرتبط ارتباطًا وثيقًا ببنية الحدث الرّوائيّ، وبحركة الشخصيّة لتحقيق برامجها السرديّة وبطبيعة الشخصيّات التي تتعامل مع الأمكنة على اختلاف أنواعها.

مهما تعدّدت المصطلحات المترجمة عن اللغات الأجنبيّة، يبقى أنّ المكان هو نقطة انطلاق الرّوائيّ لبنية النّص وتطوّره، ولا بدّ من عتبة دخول إلى هذا العالم. ذلك الشّيء ينتظم في وجوده الخارجيّ، منذ تشكّل عنوان الرّواية وهندسة الغلاف، وقد يكون له وظيفة تؤشّر إلى حقيقة واقعة داخل النّصّ. و"يوجّه القارئ إلى فهم خاص للعمل"[3].

1- العتبات النّصيّة

يتشكّل الفضاء الروائيّ المكانيّ ببعضه منذ مظهر الرّواية الخارجيّ، بدءًا من العتبات النصّيّة. فما الإحلال بينها وبين المتن الرّوائيّ ؟ اهتمّ العديد من النّقاد الغربيّين والعرب بهذا الجانب، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر جيرار جنيت (Genette)، كما جاء في كتابه "عتبات" Seuils ، ليو هوك (Léo

(Hoek) "سمة العنوان"La marque du titre[4]. ونشطت الدّراسات العربيّة في حقل العتبات أو النّصّ الموازي، منها: "انفتاح النّص الرّوائيّ" لسعيد يقطين، "عتبات جيرار جنيات من النّص إلى المناص" لبلعابد عبد الحقّ، "بنية النّصّ السّرديّ" لحميد لحمداني، "سيميوطيقا العنوان" لجميل حمداوي.

يحدّد جنيت (Genette) العتبات بأنّها كلّ "ما يحيط بالكتاب من سياج أوّلي وعتبات لغويّة وبصريّة"[5]. إشارة إلى بوابة الدّخول إلى النّصّ، والخروج إلى القارئ، ومنها الهيئة الطّباعية، ودار النّشر، وما يرد في صفحتَي الغلاف الخارجيّ... بهدف بلوغ قصديّات معيّنة تأثيريّة أو ترويجيّة أو تعريفيّة أو تعيينيّة.

نتوقّف عند العنوان والغلاف بوصفهما عنصرين جوهريّين نلج من خلالهما عالم النّصّ الرّوائيّ. ماذا في رواية "مسرى الغرانيق في مدن العقيق"؟

1-1-مسرى الغرانيق في مدن العقيق

تحتمل العناوين المعاصرة تأويلات كثيرة على الغلاف، قد يكون لها صلة بالنّصّ، دلالات شارحة للمنظور الرّوائيّ، أو معنى حقيقيًّا يفسّر الرّواية. ولكن ما الوظيفة العلائقيّة بين عنوان الرواية ومتن النّصّ؟

أ- عنوان الرّواية

خُطّ العنوان الخارجي لـ"مسرى الغرانيق في مدن العقيق" باللون الصفر وبالخطّ الثّخين البارز، تصدّره في الأعلى بخطّ أبيض أرفع عبارة " القائمة الطويلة لجائزة بوكر العربيّة 2019"، تلاه اسم المؤلّفة مباشرة أعلى العنوان بخطّ واضح ، وعلى يسار أسفل صفحة الغلاف، أدرج العنوان التّعيينيّ/التّجنيسيّ "رواية" وعبارة "مكتبة 352"، فـ"دار الساقي".

كيف نقارب عنوان رواية " مسرى الغرانيق في مدن العقيق " سيميائيًّا؟

جاء العنوان جملة اسميّة "مسرى الغرانيق في مدن العقيق"؛ مبتدؤها بصيغة التّركيب: فالمسرى لغة: وسريت سُرًى وسرًى وأسريتُ بمعنى إذا سِرْت ليلاً" [6]"أي خطّ سير، كان مسرى النبيّ ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والإضافة الغرانيق مفردها "الغُرنوق: الناعم المنتشر من النبات [...] والأبيض الشاب الناعم الجميل [...] وفي الحديث: تلك الغرانيق العُلا؛ هي الأصنام، وهي في الأصل الذكور من الطير"[7]، أمّا خبرها فشبه جملة؛ فمِن حرف الجرّ ابتداء الغاية، ومدن: "مدَنَ بالمكان: أقام به"[8]، فالمضاف إليه العقيق وهو "وادٍ بالحجاز كأنّه عُقّ أي شقّ [...] ويُقال كلّ ما شَقَّه ماء السيل في الأرض فأنهره ووسّعه عَقيق"[9]. ما البنية الدّلاليّة للعنوان؟

عبارة "مسرى" مصدر ميمي، تمثّل صيغة حدثيّة غير مقترن بزمن، مفردة مضافة إلى صيغة الجمع "الغرانيق". تقف عندها الرّوائيّة لتعبّر عن حالة مضافة إلى لفظة "الغرانيق" في صيغة الجمع، والغرنوق طير أبيض في المعتقدات يحلّق عاليًا من أجل الحريّة، فالإضافة تطرح أثرًا مكانيًّا على الشاب المتطاول العنق الذي يدلّ على الاستزادة في المعرفة، في مسراه الثقافيّ المتنقّل، بين المدن الخصبة المتدفّقة خيرًا وعطاءً حسيًّا وفكريًا، وذلك من خلال مواصلة التّنقّل المتدرّج من اليمامة إلى بغداد، والمكوث في أقبعة مساجدها يتلقّف العلم من حلقاتها، ثمّ الارتحال إلى الشام، فالقدس، ثمّ الأندلس. من هنا، فإنّ عنوان الرّواية يوحي بعدم ثبات الشّخصيّة في المكان الواحد من أجل نشر المعرفة والحكمة في مسراه بين المدن.

في هذه الرّواية، يؤشّر العنوان إلى ذات فاعلة في الخطاب الرّوائي تواجه في الأمكنة مسالك ومسارب وعرة، بين دخول وخروج، ثبات وتأرجح وبين الأمكنة. هذه الحالة من عدم الاستقرار تضعنا أمام امتحان مسعى الغرنوق في مسراه بين المدن. فالغرانيق كما جاء في الرواية : "نحن، السراة الغرانيق من أهل العدل، والتوحيد، علينا بثّ هذه الكتب في المكتبات ودور العلم، وبين أيدي ذوي الفكر النّابه الفطن، وأولئك الّذين اختاروا العقل نبراسًا في جلب المنفعة ودفع المضرّة"[10]، فالسراة لا يسابقون الزمان، همّ حذرون متريّثون، يقلّبون الأمر على كلّ الأوجه قبل المضيّ فيه[11].

تلاحم أميمة الخميس بين عنوان الرّواية الخارجيّ وفصولها السبعة، والمؤرّخة باليوم والشّهر والسّنة، ما يؤكّد أنّ الرّواية تؤرشف مسار الشخصيّة، وفصول حياتها أثناء تنقلاتها.

ب- غلاف الرّواية

يغطّي النصف الأكبر من الغلاف لوحة لمدينة، يغلب عليها الطابع المعماري التراثيّ العربيّ، تسطع تحت سماء زرقاء، يلفّها سور عظيم، تحتجب خلفه أبنية رمليّة اللون، وجوامع أو كنائس متفاوتة الارتفاع، تتزيّا أقبيتها الدائريّة باللون الأخضر المائل إلى الفيروزي، تقوم كلّ منها على بناء أزرق مزخرف ثماني الأضلاع، وفي منتصف يسار الغلاف رحّال بعباءة بنيّة اللون وقلنسوة سوداء، خلفه الصحراء، يلج باب المدينة ممتطيًا حصانًا، ويسوق آخر محمّلاً بالأمتعة والصناديق.

في "مسرى الغرانيق في مدن العقيق"، حمل العنوان فضاءً يجمع الزّمن الماضي، والمستقبل والمكان الّذي يختصّ به، وهو المسرى في مدن العقيق. فشخصيّة الغرنوق تمثّل الرّوح الثّقافيّة في الإطار المكانيّ. في هذا الإطار، تتأرجح بنية الخطاب في الرّواية، بين دلالات متنوّعة حيث ارتبطت الشّخصيّات بالأمكنة،

وعكست مظاهر ثقافيّة وقيمًا اجتمايّة. من هنا لا بدّ لنا من تتبّع تنقلات مسرى الغرنوق/البطل مزيد وفق العنوان، من اليمامة إلى بغداد، فالقدس، ثمّ مصر وصولاً إلى الأندلس.

نتلمّس أنّ عتبة الرّواية هندسة بنائيّة تحتضن المتن، كما أنّ العنوان يشير إلى محوريّة المكان، فما هو البعد الدّلالي له؟ وما هي ارتباطات الشّخصيّات المحوريّة وبرامجها السّرديّة بالعالم المكانيّ؟

2-1- الأبعاد الدلاليّة للأمكنة

تستهلّ الرّوائيّة أميمة الخميس متنها الحكائي بالتّنقّل من منطقة إلى أخرى، تصوّر كلّ ما هو ثابت ومتحرّك في كلّ من المدن بالتّناوب، فترصد فيها البعد الهندسيّ إلى ما هو أبعد من المكان، حتّى يخال المتلقّي أنّه لا يقرأ أحداثًا لرواية واحدة، بل عدّة روايات.

تؤرّخ الرّوائيّة أميمة الخميس سردها الحكائيّ من خلال الراوي "مزيد الحنفيّ"؛ بيوم السبت 4 شعبان 402 هـ/ 1 آذار 1012م، الذّي خلّف وراءه اليمامة موطن رأسه، ورحل إلى حيث المجد يقطفه من ربوع حلقات المساجد الدراسيّة في بغداد، ومن مكتباتها. إلاّ أنّه هرب من هذه المدينة العريقة واستتر، كتاجر كتب، بين مسافري قافلة للعطور، متجّهة من بغداد إلى القدس، خوفًا من زمن الفتنة في بغداد، ومن إحراق الكتب والمخطوطات والمدوّنات وتطهير الذنوب بجمرها، هي مخطوطات دفع بها الشخصيّة "سراج الدين الفراتي" إلى الراوي مزيد/ البطل، مع حافظة رسائل نحاسيّة محفور فوقها كلمات غامضة، وقد دوّن فيها سبع وصايا بينها نصائح وحكم عن الحياة، حتّى يخرجها من بغداد، خوفًا من أن يكون مصيرها الحرق والتلف، ومنها انتقل في مسراه إلى مصر، وهرب منها، زمن الفتنة، إلى الأندلس.

بين المدن

تُحرّك الرّوائيّة شخصيّاتها داخل الإطار المكاني المتعالق بتتابع الأفعال في الزّمن والفضاء الرّوائيّ، وتضافرها يؤدّي إلى الوعي بسلوك الشّخصيّات الرّوائيّة. عديدة هي الأماكن المطروقة في النّصّ الرّوائيّ، والنّظر إلى هذه الأماكن يلحظ شمولها فضاء المدينة. نتتبّع هذه الشّخصية الرئيسة في مجالاتها بين الإقامة والتّنقّل، ومن خلال تجربة الشّخصيّة الرّوائيّة فيها.

بيت الأهل في اليمامة

يقول غاستون باشلار (Gaston Bachlard): "البيت هو ركننا الأساسيّ في العالم"[12]، وإذا تتبّعنا الأبعاد الدّلاليّة للبيت، نلاحظ أنّه المرتكز الّذي يحدّد سلوك الشّخصيّات، وتكاد تكون العلاقة الأوثق بين

الشّخصيّة، والبيت هي علاقة "مزيد" ببيته، ومَظهرًا من مظاهر الحياة الدّاخليّة لكلّ فرد من الأفراد. فالأماكن بأبعادها الهندسيّة تحمل بُعدًا إنسانيًّا، كما يقول باشلار (Bachlard)، وظيفة التّعبير عن ذاتنا الإنسانيّة[13]. وهكذا تتحدّد مجالات الدّخول إلى المكان الرّوائيّ، عبر الدّوائر الآتية: أماكن الإقامة الجبريّة والاختياريّة، المغلقة والمفتوحة.

إذا إنّ البيت هو عالم الإنسان الأوّل، به تبدأ الحياة، كحاضن وملجأ له، لا بدّ أن ينظر إلى الدّلالة الكامنة فيه، لا أن يُنظر إليه كمظهر خارجيّ هندسيّ فقط. البيت مربوط بمنظور الرّوائيّ في سرد الأحداث. بين السّرد والوصف والحجاج والتّفسير، تتكشّف رؤية الرّاوئيّة إلى علائقيّة البيت الّذي ترعرع فيه البطل/مزيد، في حجر اليمامة[14]، القائم في وسط الجزيرة العربيّة، تكتنفه والدته شيماء بحبّ وحذر من أعين الحيّ والجيران، فكانت تجده بهيًّا ووضاء الملامح، يقطف الصبية الورد من وجنتيه، لذا كانت تزرع له في كل غرفة ومنعطف في الحيّ جنيًّا تخوّفه به، حتّى لا يبتعد في اللعب مع رفاقه، تتبعه بين الغرف وتقف بعتبة الباب تتأمّله وهو صاعد على الدرج قابضًا يد جدّه، تتفادى الاجتماع بوالده، تاجر الإبل الذي تراكمت الدنانير في زنّاره، ونادرًا ما شهدهما يتحدّثان بودّ وإلفة، يوبّخها على أمور غامضة بينهما، فتمضي إلى أقصى الدار تبكي وتتذكّر ذويها الذين يبعدون عنها مسيرة أربعة ليال[15].

تبدو الروابط العائليّة متماسكة مع جدّ يؤمّ "لمسجد حكّامها داخل حصن بني الأخضير من سبط الحسن"[16] يحنو عليه ويرعاه، يرافقه مزيد في غدوه ورواحه، وفي محرابه، وأثناء إقامته الصلاة[17]، معه أتقن القراءة والكتابة[18]، رافقه في شغفه تلقّف العلم وحبّ المعرفة. فيقول عن اليمامة "وطني كالمرأة الفاتنة المبرقعة تستوحش في حضرة الغرباء، لكن عندما تطمئن، تنزع برقها وتتجلّى وتفور ينابيعها بالشهب والعسل، عسل تختزنه خوابيها من زمن طسم وجديس والأقوام الغابرة[19]".

فالمعاني إن دلّت على شيء، هي انصهاره بالبيت المتعالقة مع كلّ من شخصيّة الأمّ والجدّ. إلاّ أنّ المكان يتبدلّ مع موت جدّه حيث يرغب المغادرة إلى بغداد، لاستكمال حلم جدّه في الاستحصال المعرفيّ.

فبحسب النّص الرّوائي، وانطلاقًا من التّحوّلات الماديّة، يعيش قاطنوها تحوّلات تنعكس تدريجيًّا على الضّبط الاجتماعيّ، لما له من خصوصيّة تميّزه في علاقاته وتفاعلاته[20]". هذا الحيّز انعكس على تفكير البطل/مزيد، تجلّى آنذاك، في الخروج عن البيت وتخطّي لواعج والدته من الفراق.

الأماكن الاختياريّة

تتميّز هذه الأماكن بعدم الثّبات، وتمثّل فضاء ازدواجيًّا بين المغلق والمفتوح، حيث تتطلّع الشّخصيّة إلى منفذ يريحها، ويبعدها عن هاجس اللأمان، بدءًا ببغداد، فالقدس، ثمّ مصر وصولاً إلى الأندلس.

بغداد المدوّرة تتماهى في دورانها مع الأفلاك، حلقة تدور حول نفسها، تروم مجدًا وهّاجًا، من مساجدها ودور ورّاقيها، وطرقاتها"[21]، وبعد معاشرة الراوي البطل/مزيد النّاس، اكتشف أنّها ليست المدينة الّتي كان يبنيها طوال طفولته في اليمامة، فوجدها خانقة ولا تبالي كثيرًا لزوّارها. كان متأمّلًا أن يقطف ثمار مجدها ويسيّر السّلطان له العلماء والفقهاء، ولكن وجدها ضيّقة الرّزق وفائقة العلماء والشّعراء ودواوين الخلافة، عارمة بالدسائس والفتن.

أمّا مدينة القدس، مدينة الأنبياء، فتتبدّى للراوي كـ"جبل هائل بتلال وهضاب بين أحراش وأشجار متشابكة، وتنتشر فوقه المآذن وقباب الكنائس [...] توزّعت حولها برك حجريّة مستطيلة تملأ من البئر للوافدين [...] هواء المدينة يحمل خفق أجنحة، هل هي لطيورها أم أنّ الملائكة قد ألفت دروب المدينة؟ [...] والازدحام شديد"[22] بالحجّاج المسلمين والمسيحيّين، فيها مسجد قبّة الصخرة "حيث عرّج سيّد الخلق إلى السماء"[23]، وكنيسة القيامة.

وفي القدس نجد جمعًا من الأمم يحجّون إليها، وهي حاضنة الديانات السماويّة، فأخذوا منها المسيحيّة واعتنقوها، ومن الإسلاميّة تجلت معالم الإسراء.

يتّضح ممّا سبق أنّ جميع هذه المدن التي أمّها البطل/مزيد مفتوحة، تتميّز بحضارة مشتركة، تحضن مجموعة بشريّة تتكلّم وتنتمي إلى ثقافة واحدة، منفتحة على عدّة أقاليم، لغة واحدة، أمّة عربيّة واضحة المعالم، من الناحية العمرانيّة، والسياسيّة والثقافيّة، ودينيّة واحدة الألوهة، إلى جانب نشوء تجارة متقدّمة تنقل البضائع ومعها الثقافة الإسلاميّة والفلسفة اليونانيّة، من جنوب الجزيرة العربيّة إلى أطرافها الشماليّة والشام والعراق، وصولاً إلى الأندلس، ما ساعد على تحسين أحوالهم المعيشيّة والحضاريّة متّصلين بالتنوّع الثقافيّ.

أمّا في بغداد فنلحظ العسكر المنظّم في حماية الدولة المؤتَمِر من الملك، لحماية سلطته أو للحراسة، وكانت أحكامهم قاسية، منها إحلال الإعدام عقابًا على خيانة السنّة الدينيّة وجوهر الدين الحنيف، وعلى الفلاسفة والمفكّرين ممّن لم يميّزوا بين المعتقدات الفلسفيّة والديانة.

من بغداد أخذ بتعاليم المعتزلة: وهي العُزلة، ففيه معنى الانقطاع عن القوم والانفراد عنهم ومفارقتهم[24]"، ويرجّح بعض الباحثين نشوء الفكر الاعتزالي إلى الإشكال الحاصل عند بعض العقول إذا ما تعارض النّصّ الظاهر مع العقل، ولذلك عمدوا إلى التأويل ليستقيم لهم فهم النصّ وقبوله لدى العقل، ليتسنّى إقناع المخالفين خصوصًا من أصحاب الديانات المختلفة[25]"، يجتمعون على الأصول الخمسة، وهي: "التوحيد، العدل، الوعد والوعيد، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[26]".

ومن بغداد أصبح البطل/مزيد الحنفيّ من سراة المعتزلة. هذه المدينة التي غيّرت مسراه الفكريّ والحياتيّ، جعلته غرنوقًا أينما حلّ، يبحث عن مُريدين سُراة لنشر تعاليم المعتزلة. هذه المدينة انطبع بها وعمّمها في مسراه سرًا. أدواتها العلم والفكر الفلسفيّ. ولم تعد بغداد الغنيّة بمكتباتها، وبتنوّعها الثقافيّ والحضاريّ، غاية تحقيق منى جدّه في تلقّف العِلم فقط من مساجدها وحلقاتها العلميّة، بل تحوّل إلى واحد من سُراة أبناء الفكر المعتزليّ، يجوب العالم في نشر تعاليمهم تحت غطاء، تاجر كتب أو طالب علم، يحاذر أعين المتربّصين وسلطة الدولة المكتنفة بإمامة المقتدر بالله الذي شدّد في "إبلاغ العامّة الاستمساك بالعروة الوثقى والالتزام بالدين القويم والتبرّؤ من الاعتزال ورفض المقالات المخالفة للدين"[27]، وبذلك أصبحت المدينة مكانًا مغلقًا.

في مصر الجوّ مرتقب ومزدحم بالعيون، بيوتها طينيّة متقشّفة بمقدّمات مظلّلة بسعف النخيل تطوقها مزارع الفواكه وحقول الشعير، سوقها مزدحم، أهلها مبتهجون بقدوم الوافدين[28]، تتخلّلها قنوات مائيّة تطفو فوقها أغصان الأشجار، يحوط المدينة سور عظيم وعلى بوّاباته العسكر الفاطميّون يتفحّصون القادمين[29]، يداخله مبانٍ حسنة النقوش بنوافذ خشبيّة مزخرفة جلّها من ثلاثة طوابق، وساحات تتوسّطها أحواض مزهرة يفور فيها نوافير، وقنوات مرصوفة يجري فيها الماء أسفل جدران المنازل، فيما رُشق فوق الجدران مصابيح نحاسيّة بزجاج ملوّن، وبجانب كلّ مسجد ميضأة، وماء سبيل"[30]، تضجّ بأصوات الباعة المتجوّلين، عساكرها عيون الحاكم المعصوم، أبناؤها ترمي المناشير المناهضة لأمر الحكم بمنع العنب الذي تتدلى عرائشها على تخوم البيوت[31]، فـ"الشوارع والطرقات مليئة بالأعين والمتربصّين، وأيّ وشاية هامسة في أذن الفتى الأرعن من الممكن أن تذهب برأسه"[32].

وبذلك تصبح هذه المدينة العريقة المتداخلة بالثقافات المتنوّعة مدينة مغلقة على مسعى علوم سُراة كالبطل/ مزيد الغرنوق. فما إن يحقّق وصيّة من وصايا السراة ويقتنص مريدًا، ينتقل إلى مدينة أخرى، وهذه المرّة إلى الأندلس، حيث ينصبّ اهتمام أهلها على مترجمات الكتب الإغريقّة وغيرها من العلوم.

في الأندلس استقبلته المدينة بالمطر والرعود[33]، تتميّز بحدائقها غنّاء، تكثر فيها الآبار، تطلّ على البحر، تعجّ بالوافدين، "دار غلاء، وأهلها كلفون بالجمال، وتزيين الدور، وزخرفة الملابس، وترجيل الشعر بالعطر، والاستحمام بالصابون المخلط بالمسك"[34]، هي مدينة مفتوحة الأفق غنيّة بالتمازج الثقافيّ والحضاريّ. إلا أنّ مترصدي سُراة المعتزلة كانوا له بالمرصاد، فكان مصيره السجن المغلق على مسراه.

داخل هذا الفضاء يشعر مزيد بالملل واللّامبالاة وانطفاء الشّعور، وفقدان الشّغف، الأمر الّذي جعله غير حسّاس ولا يميّز داخل فضاء مغلق، حيث أصبحت كلّ آماله مجرّد أحلام وذكريات، مرتبطة بحبل الماضي، وترقّب من حاضر متدهور، وقلق من مستقبل مظلم إزاء غياب كامل للحرّية، لأنَّ السّجن والقرية متناقضان في دلالتهما، يمثّل الأوّل مساحة المشاعر الفرديّة، والرّأي الشّخصي، بينما يمثّل الثّاني، مساحة العلاقات الاجتماعيّة.

لعلّ هذا التّمييز بين الأمكنة يحمل فواصل وجوديّة، تتعالق مع سير الأحداث تحمل البطل/مزيد إلى الانتقال من مكان إلى مكان، ومن حالة إلى أخرى. فالمكان "ليس سوى تخطيب لسلسلة الأماكن الّتي أسندت إليها مجموعة من المواصفات، لكي تتحوّل إلى فضاء مؤثّر. وبهذا يعدّ التّفضّي برمجة مسبقة للأحداث وتحديدًا لطبيعتها، فالفضاء يحدّد نوعيّة الفعل، وليس مجرّد إطار فارغ تصبّ فيه التّجربة الإنسانيّة"[35].

يكشف المكان عن شخصيّة الإنسان، متّخذًا دلالته الاجتماعيّة والنّفسيّة، من خلال تشابك العلاقات، يصبح المكان جزءًا من بناء الشّخصيّة تصبغ كلّ ما حولها بصبغتها. وهكذا يمكن القول: إنّ بنية مكان النّصّ أصبح نموذجًا لبنية مكان العالم. هذه الثّنائيّة بين الشّخصيّة والمكان، توقظ في الذّات العميق من المشاعر، مرآة تعكس مكامن الذّات الإنسانيّة وأغوار النّفس. تعلن للقارئ انسياب هذه المشاهد الصّادرة وسط إغواءات المكان من تخيّلات الشّخصيّة بسكونها وحركاتها.

يحمل المكان الشّكل الخارجيّ للحياة، "وسببًا في تنظيم العلاقات بين النّاس، وذلك من خلال التّقسيمات المعمول بها في الحياة اليوميّة، فهناك المكان العامّ والخاصّ والأكثر خصوصيّة"[1]. وذلك وفق تحرّكات الشّخصيّات وأهدافها وعلاقاتها، تؤثّر وتتأثّر به، يتفاعلان. تتّخذ هذه الأماكن منحى إنسانيًا، يظهر من خلال العوالم الدّاخليّة للذّات. أماكن توقظ الذّاكرة إلى بقاع بقيت راسخة متجذّرة في الذّهن، تشّد إليها الحنين إلى مطارح الأصدقاء، والفرح، والألم، والشّوق لتلك الأماكن، ولتلك الأيّام.

في رواية "مسرى الغرانيق في وادي العقيق" ، يتبدّى لنا أنّ السّجن كان مآل مزيد الحنفي الشّخصيّة الرّئيسة في الرّواية، طالب العلم والباحث عن المعرفة والحكمة، وكأنّ الرّوائيّة أرادت أن توصّل لنا فكرة أنّ الفتنة والفوضى في المجتمع العربيّ وصلت لحدّ المسّ بالعلماء وكبت معرفتهم خلف قضبان السّجون.

هو مسرح تجتمع فيه شبكة من العلاقات الّتي تجمع بين عناصر الرّواية المختلفة ومنه يصبح المكان ضرورة في الرّواية. المكان قبل كلّ شيء، لا قيمة له في ذاته، بل بمقدار ما يمكن أن يكون مسرحًا

تتمّ فيه عمليّة التّحوّل. من هنا، تمّ البحث في تحديد القيمة الإنسانيّة لأنواع الأمكنة، وتبيان التقاطبات المكانيّة بما يرتبط بها الإنسان في حالته الشّعوريّة، وإبراز كيفيّة تعامل الثّقافات مع المكان كجزء من تنوّعها، ليشكّل المكان حيّزًا يترجم فيه الصّراعات الإنسانيّة، والسّياسيّة، والطّائفيّة، والوجوديّة والحضاريّة.

بهذا جاءت الفضاءات دوالي سيميائيّة، اكتسبت قيمتها في البُعد التّأثيريّ التّحويليّ، ممّا ساهم في تبدّل وضعيّات الشّخصيّات وأحوالها، في البُعد الحياتيّ المرتبط كما أسلفنا بدلالته الحضاريّة، والبُعد الفنّيّ، إذ يُعتَبَر المكان أحد عناصر السّرد الأساسيّ. في المقابل ارتبط الزّمان بالأفعال، فمع اكتشاف بنية المكان في الرّوايتين سهّل على المتلقّي رؤية العالم الرّوائيّ ودلالاته، والأهم مشكلة الإنسان.

المكان في الرّواية يحمل ازدواجًا وظيفيًّا من حيث سيميائيّة القصّ، كونه جزءًا من عالم الرّواية، ومن تشكّل بنائها. لذا، يتبيّن من خلال الدّراسة أنّ المكان الرّوائيّ، أو المكان الجغرافيّ، لا يقتصر على الأبعاد الهندسيّة، وإنّما يكثّف وجود المتخيّل. ولا ينفصل عن دلالته الحضاريّة؛ بل يحمل دلالات ملازمة له ولتشكّله. كما يُضفي البُعد على الحقائق المجرّدة، ويُظهر دور التّصوير الحسّيّ في تشكيل الفكر البشريّ، ودور الرّمز في تجسيد تصوّر الشخصيّات العام لعالمها، ما جعل علاقة التّأثير والتّأثّر بين الإنسان والشّخصيّات الرّوائيّة تتوثّق من خلال أدوارها. من هنا، تمّت دراسة العلاقات الجدليّة بين الشّخصيّات القصصيّة والأمكنة تأثّرًا وتأثيرًا، انتماء وتنقّلاً، حركتها في المكان المؤطّرة بزمان يحكمها، بما يلفت خدمتها سيرورة الأحداث.

---

[1] – ابن منظور. **لسان العرب**، 3/ 152. (مادّة تيه)

[2] – مادة (تيه)/https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

[3] – حميد لحمداني. **بنية النّصّ السّرديّ**، ص56.

[4] – للاستزادة ينظر: كتاب ليو هوك، **سمة العنوان**. Léo Hoek. **La marque du titre**.

[5] – Gérard Genette. **Seuils**, p13.

[6] – ابن منظور. **لسان العرب**، 6/ 252.(مادّة سرا)

[7] – ابن منظور. **لسان العرب**، 10/ 61. (مادّة غرنق)

[8] – ابن منظور. **لسان العرب**، 12/ 55. (مادة مَدَن)

[9]– ابن منظور. **لسان العرب**، 9/ 322. (مادّة عَقق)

[10] – أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، 183.

[11]– أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، 183.

[12] – غاستون باشلار. **جماليّات المكان**، ص36.

[13] – غاستون باشلار. **جماليّات المكان**، ص40.

[14] – أميمة الخليل. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 17.

[15] – أميمة الخليل. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 18.

[16] – أميمة الخليل. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 18.

[17] – أميمة الخليل. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 19، 20.

[18] – أميمة الخليل. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 22، 23.

[19] – أميمة الخليل. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 253.

[20] – مها كيّال. "بين المدينة والرّيف: المجال والهويّة والتّمدين في لبنان الشّماليّ". ص143.

[21]– أميمة الخليل. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص55.

[22]– أميمة الخميس. **مسرى العقيق في مدن العقيق**، ص 159، 160.

[23] – أميمة الخميس. **مسرى العقيق في مدن العقيق**، ص 197.

[24] – ماجد الدرويش. **مراجعات في الفكر والتاريخ والشريعة والمعتقد**، ص 172.

[25] – ماجد الدرويش. **مراجعات في الفكر والتاريخ والشريعة والمعتقد**، ص 177.

[26] – ماجد الدرويش. **مراجعات في الفكر والتاريخ والشريعة والمعتقد**، ص 178.

[27] – أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص149.

[28]– أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 281.

[29] – أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 284.

[30] – أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 284، 285.

[31] – أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 348.

[32]– أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 350.

[33] – أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 445.

[34]– أميمة الخميس. **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**، ص 447.

[35] – شاكر النّابلسيّ. **جماليّات المكان في الرّواية العربيّة**، ص27.

المصادر والمراجع

- باشلار (غاستون).**جماليّات المكان**. ترجمة غالب هلسا. ط.2، بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر والتّوزيع. 1984.
- الدرويش (ماجد). **مراجعات في الفكر والتاريخ والشريعة والمعتقد**. لا ط، طرابلس: مؤسّسة شاعر الفيحاء سابا زريق الثقافيّة، 2018.
- الخميس (أميمة). **مسرى الغرانيق في مدن العقيق**. ط1، بيروت: دار الساقي، 2017.
- لحمداني (حميد). **بنية النّصّ السّرديّ: من منظور النّقد الأدبي**. ط2، الدّار البيضاء- بيروت: المركز الثّقافي العربيّ، 1993.
- ابن منظور (630-711هـ). **لسان العرب**؛ نسّقه وفهرسه علي شيري. ط2، لبنان: دار إحياء التراث العربيّ، مؤسّسة التّاريخ العربيّ، 1992.
- النّابلسيّ (شاكر). **جماليّات المكان في الرّواية العربيّة**. ط.1، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1994.
- (2024 /6/15) مادّة (تيه) https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/
- Hoek (Léo). **La marque du titre** dispositifs : sémiotiques d´une pratique textuelle, Paris: Mouton, 1981.
- Genette (Gérard). **Figures I**. Paris: Edition du Seuil, 1966.